اليرموك: كارثة أكبر من مخيم

مهند عبد الحميد*

# وبقي اليرموك أميناً على قيم الحرية

ما إن دلفت قدماي مخيم اليرموك حتى شعرت بنوع من الألفة والاطمئنان، كأنني أعيش فيه منذ زمن طويل. اللاجئون المقتلعون والمرفوضون من مستعمِر متوحش، يتمتعون بروحية قبول أي آخر متأنسن عادي أو طبيعي، وتنطبق عليهم فلسفة ابن عربي التي تقول: عندما لا تضمر الشر للآخر فإنه يتطبّع ويتصادق معك، يستوي في ذلك علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالحيوان. لكن شعوراً نقيضاً لذلك انتابني عندما عدت إلى الوطن، فقد أحسست بوجود جدار سميك يفصلني عن محتل يرفض وجودي السلمي الطبيعي ولا يقتنع بالسلام؛ واجهت آخر مصاباً بـ"جنون الارتياب"، بحسب الكاتبة البريطانية هيلينا كوبان.

تعرفت على المخيم أول مرة في سنة ١٩٧٦، في سياق محاولة لإعادة بناء منظمة الجبهة الشعبية التي تعرضت مع تنظيمات أُخرى لحملة اعتقال واسعة في أعقاب تدخّل نظام الأسد ضد المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. كان المخيم آنذاك يمور غضباً ضد النظام، وقد تعرفت آنذاك على شباب وصبايا مندفعين وثوريين، وكنا نجد صعوبة في تهدئتهم ، ولا سيما الرفيق زياد الذي كان يطلب أكبر عدد ممكن من البيانات لتوزيعها، وتبيّن أنه كان يوزعها في الشوارع والساحات ليلاً مستخدماً دراجته النارية. ولفت انتباهي في ذلك الوقت، تقارب شباب المخيمات وتعاونهم مع القوى الثورية اليسارية السورية الناشئة، والاهتمام المميز بالقراءة، وخصوصاً التجارب الثورية والأدب.

وقد رفدت مخيمات سورية، ولا سيما مخيم اليرموك، فصائل المقاومة بالمقاتلين، بمَن في ذلك مقاتلون سوريون.

أتيت إلى مخيم اليرموك في المرة الثانية، قادماً من لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي في سنة ١٩٨٢ وطرد منظمة التحرير وتشتيتها إلى عدة بلاد عربية. أحسست بالانتماء الفوري إلى هذا المكان، وكنت أخرج صبيحة كل يوم من المنزل الجديد في المخيم إلى

* إعلامي وكاتب فلسطيني.

المكتب الإعلامي في حي "التضامن" القريب. ولفتت انتباهي مجموعات النساء اللواتي كن يجلسن أمام المنازل فيما يشبه الملتقى، فيشربن الشاي مرة، ويتحلقن مرة أُخرى حول كومة كبيرة من الملوخية فيفرطنها، أو يقمّعن البامية والفاصولياء، وكن يعملن ويتحدثن بصوت عال عن همومهن وعن الماضي والحاضر. وعندما زارتنا حماتي التي تسكن في حي المهاجرين في مدينة دمشق، اكتشفت بنفسها أن الحياة في المخيم تختلف. قالت: "هنا في 'وَنَسْ' وحيوية وتعاون أكثر، بس صوت النساء كثير عالي، والمخيم بنْغُل أولاد." وأضافت: "أنا وصديقاتي الفلسطينيات والسوريات نلتقي مرة في الشهر في المدينة، أمّا هنا فالاجتماع يومي وعلى مدار الساعة."

في الشارع الضيق القريب من دوّار فلسطين، أقيمت بنايات بسيطة على جانبَي الشارع، وكل مبنى يضم شقتين. كان التنوع السكاني مميزاً: نحن مقاومة، وجارنا وزوجته يعملان في جريدة «الثورة» السورية، وفي مقابلنا تسكن عائلتان لجنود في سرايا الدفاع، وفي مدخل الشارع تسكن عائلة يسارية معارضة للنظام، وما تبقّى عائلات فلسطينية وسورية. فالانتماء إلى طوائف ومذاهب وقوى سياسية لم يُلغِ التعايش والصداقة والتضامن بين السكان. وقد كشفت جنازة خليل الوزير (أبو جهاد) عن علاقة أبعد من التعايش والتضامن بين الشعبين السوري والفلسطيني، إذ تحول شارع المخيم لحظة وصول الجثمان إلى نهر بشري هادر متماوج، الأمر الذي أشعرني بأنني جزء من كتلة بشرية ضخمة تتحرك كجسم واحد من أول المخيم حتى مقبرة الشهداء. كان جثمان الشهيد ينزلق فوق الأكف، ولأول مرة أشاهد أكفاً تتحول إلى بساط بطول المخيم، يتحرك فوقه الجثمان باندفاع آلي مهيب. وشارك في الجنازة أكثر من ضعفَي عدد سكان المخيم البالغ آنذاك ١٥٠,٠٠٠، بل وصل العدد إلى نصف مليون تقريباً فاضت بهم شوارع المخيم وأسطحه وزواريبه وبلاكينه كافة. جاؤوا من كل حدب وصوب: فلسطينيون وسوريون من دون تنظيم ولا باصات ومن غير دعوات. يقول محمد علي الأتاسي ابن الرئيس السوري السابق نور الدين الأتاسي: "شاركتُ في جنازة ضخمة للشهيد أبو جهاد، تضم سوريين وفلسطينيين متّحدين في مخيم اليرموك. كنت أهتف بأعلى صوتي معتقداً أن صوتي المندمج بصوت الجماهير الهادرة التي تهتف للحرية سيصل إلى مسامع أبي المعتقل في سجن المزة رغم بعده عن المخيم. يومها اعتقدت أن الحرية تقترب وأننا أقوى."

احتفلت أنا وزوجتي بعيد ميلاد ابنتنا التي أكملت عامها الثالث في المخيم، ووجهنا دعوة إلى بضعة أطفال من أبناء الأصدقاء والجيران، لكننا فوجئنا بعد نصف ساعة بتوافد ٣٠ طفلاً وطفلة تقريباً للمشاركة في الاحتفال، وقد شاركوا وغنوا ورقصوا.

نموذج شارعنا المتعدد يكاد ينطبق على معظم الأماكن باستثناء النواة الأولى للمخيم (المركز)، والتي يقتصر سكانها على لاجئين فلسطينيين. والعلاقة بين العائلات المسيحية والمسلمة فيه متينة وصادقة، كما أنه لم يكن للفكر الديني التعصبي الابتزازي أي أثر خلافاً لأحياء عديدة في مدينة دمشق كحي الميدان وركن الدين والشيخ محيي الدين وبعض مناطق في المهاجرين.

ذات يوم صُدمنا باعتقال الأمن السوري رجلاً وزوجته، وهما من المعارضين اليساريين من شقة في شارعنا، وقد ترك رجال الأمن طفلتهما البالغة من العمر ٥ أعوام وحيدة في

البيت. بكاء الطفلة بعد فصلها عن أبويها بهذه الطريقة الوحشية أثار مشاعر وغضب الناس الذين بادروا إلى احتضان الطفلة وإرسالها بعد أيام إلى بيت جدتها في حمص. حادثة الطفلة أكدت لكثيرين افتقاد النظام الأسدي أي بُعد أخلاقي وإنساني وقانوني في تعامله مع معارضيه.

كان المخيم مركزاً وطنياً تنظَّم فيه جميع النشاطات والمهرجانات الوطنية للتنظيمات ما عدا حركة "فتح" التي طُرد قياديّوها بدءاً بياسر عرفات وخليل الوزير، واحتُلَّت مكاتبها من طرف منشقين من الحركة مدعومين من النظام، كما أن كادراتها وأعضاءها الناشطين تعرّضوا، في معظمهم، للاعتقال. وعلى الرغم من ذلك كانت شعبية "فتح" كبيرة داخل المخيم، وكانت صور ياسر عرفات منتشرة في البيوت وعلى أبواب المحلات التجارية، ومكتوباً عليها "في بيروت كنت الصمود". وعندما سألت صاحب دكان اسمه أبو محمود: ألا تخشى الاعتقال؟ قال: "بعد بيروت لم نعد نخشى شيئاً." أنا شخصياً لم أتمكن من البقاء في الجبهة الشعبية بعد تشكيل جبهة الإنقاذ التي تضم فصائل تابعة للنظام، وانتقلت إلى مجلة "الحرية" لأعمل فيها. ولم تتغير العلاقة بين "فتح" والنظام بعد سماح الأخير بدفن جثمان الشهيد خليل الوزير في مخيم اليرموك، ولا بعد استقبال ياسر عرفات الذي انتقل من مطار دمشق إلى مقبرة الشهداء فوراً لقراءة الفاتحة على قبر الشهيد. وأذكر أن سكان المخيم الذين عرفوا بمجيء عرفات اندفعوا بالآلاف وقاموا بحمل السيارة التي تقلّه محتفين بوجوده على طريقتهم. وعندما نقل مراسل "مونت كارلو"، لويس فارس، ما جرى على الهواء مباشرة تعرّض لضرب مبرح من جانب عناصر الأمن الذين قالوا له: "في هذا البلد سيارة واحدة تُرفع بالأيدي هي سيارة حافظ الأسد."

كان المخيم ملتقى للمثقفين والأكاديميين والمبدعين: سوريين وفلسطينيين وعراقيين، وكانت تُجرى فيه لقاءات حوار فكري، وعرض أفلام ـ ممنوعة ـ بالفيديو، وندوات وأنشطة فنية، كما أن الفنان السوري الملتزم سميح شقير اتخذ منه مركزاً له، سواء لجهة التأليف والتدريب، أو الغناء لجمهور عريض. وفي المرات القليلة التي سُمح له بتنظيم حفل جماهيري في المخيم كان ملعب النادي العربي يفيض شباباً وصبايا تكدسوا في محيطه بالآلاف. وقد قال له الحكيم جورج حبش في لقاء خاص: "نحن نستخدم التنظيم والباصات من أجل حشد ٥ لـ ٨ آلاف في المهرجان المركزي للجبهة الشعبية، وأنت بمجرد إعلان إقامة احتفال غنائي يحتشد أضعاف هذا العدد"، وهذا دليل على أهمية الفن والإبداع في استقطاب الشبيبة.

جمعتني بهذا الفنان الثوري المبدع تجربة ما زلت أعتز بها، فقد درّب الفنان شقير "فرقة الأرض" التابعة لمنظمة الشبيبة الفلسطينية على مجموعة من الأغاني الوطنية لا أزال أردد بعضها، ولا سيما أغنية "مش منا يللّي استسلم أو بالهزيمة سلّم". كانت أغاني سميح شقير وأغاني الشيخ إمام ومرسيل خليفة حاضرة ويستطيع المرء أن يسمعها أينما يتحرك داخل المخيم.

أمّا المفكر العراقي هادي العلوي فترك بصمات على الثقافة والفكر داخل المخيم، إذ كان يحاضر في دورات التثقيف لكوادر سياسية، وإحدى الدورات كانت بعنوان "الحضارة العربية الإسلامية". في بداية الدورة قال العلوي: "أود أن أتعرف على قراءاتكم." وبدأ كل مشارك يعرض قراءاته النظرية والفكرية باعتزاز، لكن بعد تعقيبه على قراءاتنا تراجع الاعتزاز. قال: "لا أهمية لقراءاتكم التي لا تنطلق من الواقع والتاريخ والإسهامات الفكرية

النابعة من الداخل. لن نستطيع تغيير الواقع بقراءة تاريخ الاتحاد السوفياتي.″ وتساءل: ″لِمَ لا تدرسون ابن رشد وابن عربي والمعتزلة وإخوان الصفا ومحمد عبده وحسين مروّة وغيرهم؟″ وبدأ يطرح الأفكار، ويستدعي نوعاً من جدال غير مسبوق، واكتشفنا أننا لا نفهم واقعنا. نجح العلوي في تطوير حالة من الجدل وإعمال العقل بمنهج جديد، وتكررت اللقاءات والحوارات معه داخل المخيم.

لا يمكن الحديث عن مخيم اليرموك أو العيش فيه من دون أن تنتصب أمامك قامة سامقة ومهيبة؛ إنه الناقد والمربي يوسف سامي اليوسف الذي رفع الذائقة الأدبية والجمالية للشباب. كان بيته المتواضع في قلب المخيم مزدحماً بالكتب والمراجع وبأصوات المتحاورين، وما إن تتحدث معه حتى تنبهر بذهنه المتّقد وبغزارة المعرفة لديه في مختلف المجالات. فقد قدّم للمكتبة الفلسطينية والعربية ٢٠ كتاباً تقريباً في الشعر والأدب والتراث والتاريخ.

فتح اليوسف بيته ومكتبته للشبان الفلسطينيين والسوريين على حد سواء، وكان مرجعية ناقدة لا يتورع عن البوح برسالته في بناء إنسان حامل لقيم إنسانية ورافض للظلم والاستبداد؛ رسالة تجعل للحياة معنى. واليوسف لا يجامل في نقده للأعمال الادبية، وكان ينطلق من الطاقة الوجدانية ويميز بين الطبيعي والمفتعل، بين القمح والزوان، وقد تخرّج على يديه كثيرون، لكنه ظل حاضراً بحواراته الحميمة وبنقده اللاذع.

مخيم اليرموك كان عاصمة الشتات الفلسطيني، وقد رفع قضية شعبه، وبقي أميناً على قيم الثورة عندما تحول إلى منطقة آمنة للمنكوبين السوريين. لكن هذه العلاقة الإنسانية الحميمة والتحررية بين اليرموك والمخيمات الأُخرى من جهة، والشعب السوري من الجهة الأُخرى، لم ترُق للنظام، فاستهدفها مع رمزها مخيم اليرموك بالقصف والدمار والحصار، كما أن نموذج اليرموك التعددي المنفتح لم يرُق لقوى الظلام والتعصب فعملت على خنقه وتكفيره من الداخل. وبقي الشعب السوري بلا حماية تحت رحمة البراميل المتفجرة والصواريخ، وبقي مخيم اليرموك والمخيمات الأُخرى بلا حماية وتحت رحمة البراميل. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

**قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي ـ الإسرائيلي ٢٠٠٥ ـ ٢٠١١ (المجلد السابع)**

**إعداد: جانيت ساروفيم، جيهان سلهب، ميرنا عيتاني**
**إشراف: منى نصولي**

٨٢٦ صفحة ٢٥ دولاراً